

الفصل الرابع

التَّحِقْ بِمَدْرَسَةِ السَّعَادَةِ

في هذا الفصل، نحن متوجهون إلى المدرسة؛ لكن ليس لدراسة الرياضيات أو العلوم أو الجغرافيا، بل مدرسة يؤدي فيها المسيح دور المعلم، وسيعلمنا كيف نكون سعداء، وسنتعلم عشرة دروس في هذه المدرسة. والمؤمنون الذين يستوعبون هذه الدروس مجتمعة، سيجدون أنه بإمكانهم أن يكونوا سعداء جدا مهما حدث لهم. ويجب أن نتذكر أن المسيح ليس معلِّمًا فقط، لكن حياته هي النموذج الكامل للسعادة في كل الظروف.

درس (1) – إنكر ذاتك!

إنه أمر مكلف أن تكون مؤمنا، والمؤمنون الذين يدعون غير ذلك، ليسوا صادقين. لقد كان يسوع واضحا للغاية من هذه الناحية، فقال: "إن أراد أحد أن يأتي ورائي فليُنكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني. فإن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها، ومن يهلك نفسه من أجلي فهذا يخلصها" (لو9: 23، 24). فالمسيح نفسه يعلم المؤمنين كيف ينكرون أنفسهم، إنه يعلمهم أنهم غير مستحقين للطف الله، بل غضب الله على خطيتهم، وأنهم لا يقدر أن يفعلوا شيئا بدون معونة الله لهم. وعندما تؤخذ منهم الأشياء التي يتمتعون بها، يدركون أنه ليس من حقهم شيئا من الله، لأنهم لا يعملون من أجله إلا القليل. ويعلمهم المسيح أيضا أنهم خطاة جدا، للدرجة التي تجعلهم معرضين لإفساد الأشياء الجيدة التي يمنحهم إياها، وأنه بالرغم من أنه قد يباركهم، ويمكنهم من استخدام هذه الأشياء استخداما حسنا، لكنه إذا

تركهم وشأنهم، فإنهم واثقون أنهم سيسيئون استخدامها. كذلك يعلمهم أنهم إذا ماتوا، فإن ما عملوه لن يضيع أو ينتهي؛ لأن الله قادر أن يقيم آخر يكمل المسيرة. إن فهم هذه الأمور هو المقصود بإنكار أنفسنا؛ لذلك يجب أن نبذل كل الجهد لتدرك مدى ضآلتنا؛ عندئذ فإن كل مشكلة ستبدو ضئيلة، وكل بركة ستبدو عظيمة.

درس (2) – إنكار المسيح لذاته

ما من أحد أنكر ذاته مثلما أنكر المسيح. لقد كتب إشعياء عنه قائلا: "ظلم أما هو فتذلل ولم يفتح فاه. كشاة تساق إلى الذبح، وكنعجة صامتة أمام جازيها فلم يفتح فاه" (إش53: 7). لقد تنبأ إشعياء عن المسيح، وعن كيف أنه سيخضع للموت كذبيحة عن خطايا شعبه، وكتب بولس الرسول أيضا عن المسيح أنه: "أخلى نفسه آخذاً صورة عبد، صائراً في شبه الناس، وإذ وُجد في الهيئة كإنسان، وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب" (في2: 7، 8)، وبرغم كل هذا كان أعظم من عاش قائماً راضياً. وكلما زاد اتباع المؤمنين لمثاله في إنكار الذات، كلما كانوا أكثر سعادة. لقد سرَّ المسيح بأن يعمل مشيئة أبيه، والمؤمنون يحتاجون أن يتعلموا أنه: بينما الأناييون يكونون سعداء فقط عندما يفعل الله ما يريدون، فإن من ينكرون ذواتهم يكونون سعداء بكل ما يعمله الله.

درس (3) – بدون الله لا شبع

"باطل الأباطيل قال الجامعة، باطل الأباطيل الكل باطل. ما الفائدة للإنسان من كل تعب الذي يتعبه تحت الشمس؟" (جا1: 2، 3). إن من لا تسعدهم الأشياء التي يقدمها هذا العالم، فإن عدم سعادتهم، بحسب رأيهم، ليس لأنهم لم ينالوا ما يكفيهم، بل لأن ما يقدمه هذا العالم لا يمكنه أن يجلب السعادة. لقد خلُق الجنس البشري ليعرف الله ويتمتع به. كتب أوغسطينوس العالم اللاهوتي العظيم ما يلي: "يا الله لقد خلقتنا لنفسك، وقلوبنا لن تجد الراحة حتى تستريح فيك". إن التعساء الذين يظنون أنه كلما حصلوا على المزيد من الأشياء سوف يشبعون، يشبهون أناساً جائعين،

يظنون أن ملء أفواههم بالهواء سوف يوقف ضورهم. "لماذا تزنون فضة لغير خبز، وتعبكم لغير شبع؟" (إش 55: 2). لا شيء يستحق امتلاكه بعيدا عن الله.

درس (4) – المسيح فيه الشبع

لقد علم يسوع المسيح أنه هو نفسه الذي يمنح الناس سعادة حقيقية. لقد قال: "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن أكل أحد من هذا الخبز يحيا إلى الأبد" (يو 6: 51). وقال أيضا: "إن عطش أحد فليقبل إليّ ويشرب. من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي" (يو 7: 37، 38). والخبز والماء هما أهم الحاجات الأساسية لأجسادنا. كان يسوع يعلم أنه مشبع الاحتياجات الأساسية لنفوسنا، تماما كما تنبأ إشعيا عنه: "اسمعوا لي استماعا واكلوا الطيب ولتتلذذ بالدسم أنفسكم (إش 55: 2). ووعده يسوع بأن شعبه سيكون: "لهم حياة ويكون لهم أفضل"، وأن "فرحهم سيكون كاملاً (يو 10: 10، 16: 24).

درس (5) – كن سائحا ومحاربا

المؤمنون سياح – مجرد عابرين في هذا العالم، يخيمون في خيمة أجسادهم؛ فهم يستعدون لحياة أبدية في السماء، عندما يعطيهم الله أجساد القيامة الكاملة؛ لذلك فمن الحماسة أن يكونوا تعساء بسبب أحوال أجسادهم الحالية. إننا نقرأ عنهم في عب 11: "أقروا بأنهم غرباء ونزلاء على الأرض... يبتغون وطنا أفضل أي سماويا، لذلك لا يستحي بهم الله أن يدعى إلههم لأنه أعد لهم مدينة" (عب 11: 13، 16)، ويجب أن يتعلم المؤمنون أن يفكروا بهذا الأسلوب. إن المسافرين وهم بعيدون عن وطنهم، يقبلون بعض المشقات، مثل الطعام غير المناسب أو ظروف السفر الصعبة، كذلك للمؤمنين وطن أبدي، ولذا فمتاعب إقامتهم على الأرض لا تستحق إنزعاجهم.

والمؤمنون محاربون أيضا، فقد كتب بولس إلى تيموثاوس قائلا: "فاشترك أنت في احتمال المشقات كجندي صالح ليسوع المسيح" (2تي2: 3). إن الجندي وهو بعيد عن بيته، في تدريب أو في خدمة فعلية، لا يتوقع الاستمتاع بما يتوفر من راحة في بيته. كذلك المؤمنون، هم جنود يحاربون الشيطان، عدو نفوسهم؛ لذا يجب أن يكونوا مستعدين للاستبسال في الجهاد، وعليهم أن يتذكروا أن الحياة المسيحية تشكل معركة طويلة تُحتم عليهم تحمل المشقات. لكن بينما لا يعرف الجندي العادي من سيكسب الحرب في النهاية، فإن المؤمنين يمكنهم التأكد من أن يسوع المسيح ضامن لنصرتهم النهائية.

درس (6) – استمتع بالأوقات الطيبة

إن كل ما في العالم أعطاه الله للبشر؛ لكي يتمتعوا به، وبإمكانهم أن يكونوا سعداء إذا عرفوا أن كل ما عندهم هو من الله، وشكروه على ذلك. وعندما يتطلع المؤمنون إلى كل ما خلقه الله فإنهم يرونه حسن، ويرون أن الله طيب؛ ولذلك فما صنعه الله يجعلهم سعداء. لكن يجب عليهم أن يدركوا أن ممتلكاتهم ليست أهم ما أعطاهم الله، وأن يكونوا على استعداد للاستغناء عنها، إذا كان هذا ما يريد الله. فقد يدعوهم الله لأن يخدموه في أوقات صعبة، أو قد يطلب منهم أيضا أن يخدموه في ظروف طيبة، عندئذ فهو يقصد أن يتمتعوا بالأشياء الطيبة التي يعطيهم إياها. إن الله يختار لهم الأفضل، وعليهم أن يتعلموا أن يكونوا سعداء بذلك. إن الموظف الذي يرفض القيام بعمل آخر غير عمله، بناء على طلب المدير، فإن ذلك لا يرضي الإدارة!

درس (7) – إعرف نفسك

على كل مؤمن أن يفحص نفسه، وأن يكتشف رغباته العميقة. هذا سوف يعلمه أنه ليست ظروف حياته هي السبب في عدم سعادته، بل حالة قلبه؛ فالسبب الحقيقي في عدم السعادة غالباً ما يكون الخطية. والمؤمن الذي يعرف نفسه، يمكنه أن يكبح الخطية في بدايتها، ويوفر على نفسه الكثير من الأذى، أما المؤمنون الذين لا يعرفون أنفسهم، فإنهم عرضة للإصابة بالخوف الشديد عندما تظهر المشاكل، فيقولون: "يبدو أن الله قد نسينا!" لكن إذا عرفوا أنهم في حاجة إلى أن يتنصعوا، لفهموا أن الله يرسل المشاكل لامتحانهم أو لتأديبهم. إن الدواء ذا الآثار الجانبية غير المرغوبة، قد يكون سبباً في إنقاذ حياتك؛ كما إن اختباراً يجلب بعض الضيق قد يحفظك من الخطية.

وعندما يزداد المؤمن في معرفته لنفسه، تتحسن صلواته؛ فالمؤمنون غير الناضجين الذين لا يفهمون أعماق قلوبهم، يصلون طالبين أموراً غير نافعة، ثم يحبطون عندما لا ينالون كل ما يريدونه.

درس (8) – تحذر من الغنى!

كثيراً ما يحسد المؤمنون الأغنياء؛ ولا يرون المشاكل التي يجلبها الغنى: "لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان، وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة" (1 تي 6: 10). فالحذاء الجديد قد يبدو جذاباً، لكنه قد يؤلم قدم من يلبسه، والمدينة قد تبدو جميلة لكن سكانها فقط هم الذين يعرفون مدى قذارة الأحياء الفقيرة، والناس قد يكونون أثرياء ومترفهين، لكنهم حزانى في أعماقهم، والأغنياء أو المشاهير، غالباً ما يواجهون المشاكل والأحزان، فقد يجلب الرخاء المتاعب وقد يدخل أصحابه في تجربة. قال يسوع إنه من العسير جداً أن يدخل الأغنياء ملكوت السموات، وأكثر من ذلك، فإن الأغنياء والمشاهير، سوف يعطون يوماً حساباً أمام الله عن كيفية استخدام ثروتهم وشهرتهم.

درس (9) – احذر من تحقيق رغباتك الشخصية!

نقرأ في أماكن متعددة من الكتاب المقدس، عن أناس حصلوا على ما أرادوا. وكثيرا ما يرغب الناس رغبات أنانية، لن يفيدهم تحقيقها؛ لذلك عندما يعطيهم الله ما يريدون يكون بمثابة عقابٍ شديد: "فلم يسمع شعبي لصوتي، وإسرائيل لم يرض بي، فسلمتهم إلى قساوة قلوبهم ليسلكوا في مؤامرات أنفسهم" (مز 81: 11، 12). قال برنارد (1090 – 1153)، الذي كان رئيسا لدير كليرفو: "يا رب لا تسمح أن يكون لي مثل هذه التعاسة! فإن أعطيتني كل ما أريد وكل ما يشتهي قلبي، فإن هذا يمثل أشد عقوبة في العالم". إن إدراكنا أن رغباتنا الطبيعية قد تؤدي بنا إلى الضلال، يعتبر أكثر الدروس صعوبة في مدرسة المسيح، لكنه في نفس الوقت أكثرها أهمية.

درس (10) – الله هو المسيطر

إن الله يسيطر على كل الكون بجملته، وذلك يعني أن أصغر التفاصيل التي تحدث تكون تحت سيطرته؛ لذلك فكل ما يحدث للمؤمنين إنما يحدث لأن تلك هي إرادة الله لهم، ولأن الله يرى أن ذلك سيكون خيرا لهم. وقد شجع تلاميذه بتذكيرهم بهذا بالقول: "أليست خمسة عسافير تباع بفلسين وواحد منها ليس منسياً أمام الله، بل شعور رؤوسكم أيضا جميعها محصاة، فلا تخافوا، أنتم أفضل من عسافير كثيرة" (لو 12: 6، 7).

ينبغي أن يصلي المؤمنون أن يزيد الله إيمانهم؛ فيقدروا اهتمامه بتدبير كل شيء يحدث لهم – كل التقدير – وعليهم أن يتذكروا أنه ليس من السهل أن يفهموا كل ما يعمله الله لهم، لأن كل ما يعرفونه أن الله قصدا يريد أن يتممه في حياتهم – على مدى عشرين عاما – يتوقف على شيء يحدث هذا الأسبوع، فإن قاوموا إرادة الله لهذا الأسبوع فهم إنما يقاومون إرادته في كل الأمور التي تترتب على هذا الأسبوع.

إن الله يعمل بطرق متنوعة، ولكي يسعد المؤمنون بما يعملهم الله، عليهم أن يفهموا شيئا عن الأسلوب الذي يعمل به الله. وبصفة خاصة، هناك أمران يمكن أن يتعلموهما في أسلوب الله في العمل:

أولا – من الطبيعي أن يتألم شعب الله. يظن غير المؤمنين، أنه إن كان الله موجوداً حقاً، وهؤلاء الناس ينتمون إليه فعلاً، فلماذا يتألمون؟ لكن العكس هو الصحيح؛ فإن حقيقة أنهم يتألمون، تبرهن على أنهم ينتمون للمسيح، وهذا ما كتبه بطرس: "أيها الأحباء لا تستغربوا البلوى المحرقة التي بينكم حادثة لأجل امتحانكم كأنه أصابكم أمر غريب، بل كما اشتركتكم في آلام المسيح افرحوا لكي تفرحوا في استعلان مجده أيضاً مبهجين" (1بط4: 12، 13).

ثانياً – إن الله يستطيع أن يخرج من الشر العظيم خيراً جزيلاً. كثيراً ما يدخل الله شعبه في تجارب شديدة قبل أن يُحسن إليهم إحساناً عظيماً؛ فقد كان يوسف سجيناً قبل أن يصبح حاكم مصر، وكان داود طريداً قبل أن يصبح ملكاً على إسرائيل. ويسوع المسيح تألم ومات قبل أن يقام من الأموات ويتمجد. قال لوثر: "إنه أسلوب الله أن يضع لكي يرفع، وأن يميت لكي يحيي، وأن يقهر لكي يُمَجِّد."